سؤال وجواب

مع الشيخ أبي يحيى الليبي (رحمه الله)

سؤال: كيف نجمع بين قول النبي صلى الله عليه وسلم لا تتمنوا لقاء العدو وبين خروجنا للجهاد وتمنينا للقاء العدو وجهاده وقتاله؟

الجواب: عن عبد الله بن أبي أوفى –رضي الله عنه - : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس، قام فيهم فقال : [يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم] أخرجه البخاري ، ومسلم.

فهذا الحديث ينهى فيه النبي صلى الله عليه وسلم عن تمني لقاء العدو، وهو كما قال بعض العلماء أن يقول : اللهم لقِّني عدوك، وذكر العلماء عدةَ أسبابٍ لهذا النهي مجملها يدور حول ما قد يصيب الإنسان من الاغترار والعجب والاتكال على قوته والوثوق بعاقبة أمره، ومن ثم يقود إلى الاستهانة بعدوه وعدم الحذر والاحتياط والحزم فيجني على نفسه بذلك، قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : [إنما نهى عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب والاتكال على النفس والوثوق بالقوة، وهو نوع بغي، وقد ضمن الله تعالى لمن بغى عليه أن ينصره، ولأنه يتضمن قلة الاهتمام بالعدو واحتقاره، وهذا يخالف الاحتياط والحزم، وتأوله بعضهم على النهي عن التمني في صورة خاصة، وهي إذا شك في المصلحة فيه، وحصول ضرر، وإلا فالقتال كله فضيلة وطاعة، والصحيح الأول، ولهذا تممه صلى الله عليه وسلم بقوله صلى الله عليه وسلم: واسألوا الله العافية، وقد كثرت الأحاديث في الأمر بسؤال العافية وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطن في الدين والدنيا والآخرة](شرح النووي: ١٢ / ٤٦).

فالنهي عن تمني لقاء العدو لا يلزم منه عدم حرص الإنسان على الجهاد والاستعداد له والاجتهاد فيه طلباً لرضوان الله، واستجابةً لأمره، وحرصاً على جزيل ثوابه، والآيات والأحاديث التي تحث على أداء عبادة الجهاد وتحذر من تركها والتهاون فيها وتذم المتخلفين عنها أكثر من أن تحصى، فيكون النهي عن التمني لما يترتب عليه مما قد يلحق المتمني من العجب، والتيقن بثباته عند اللقاء، وهو أمرٌ خفيٌّ يبعد المرء عن الاعتماد على الله وتمام التوكل عليه وحسن الظن به، كما يقود إلى الاتكال على الأسباب، فالمرء المسلمٌ مطالبٌ شرعاً بالجهاد ومأمورٌ به ومعاقبٌ على تركه كما قال تعالى : ﴿إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ التوبة: ٣٩، وقال سبحانه : ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء: ١٠٤، وأما الأحاديث في ذلك فهي كثيرة معلومة.

21-san.indd 9 05.09.2017 23:43:30

وهو مع مطالبة الشرع له بذلك إلا أنه منهيٌّ عن تمني لقاء العدو، لأن هذا التمني غالباً ما يكون دافعه وسببه وثوق المرء بقوة نفسه وثباته وصبره، وفي غزوة حنين درسٌ بليغٌ في ذلك، وغالباً ما تكون الحقائق خلاف ما يظن الإنسان فيقع منه المحذور من الفرار وعدم الثبات، أو شدة الخوف والاضطراب، وليس الخبر كالمعاينة، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ آل عمران: ١٤٣ ، قال الإمام أبو جعفر الطبري في هذه الآية : [وإنما قيل:»ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه»، لأن قومًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن لم يشهد بدرًا، كانوا يتمنون قبل أحد يومًا مثل يوم بدر، فيُبْلُوا الله من أنفسهم خيرًا، وينالوا من الأجر مثل ما نال أهل بدر. فلما كان يوم أحد فرّ بعضهم، وصبرَ بعضهم حتى أوفَى بما كان عاهد الله قبل ذلك، فعاتب الله من فرّ منهم فقال:»ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه»، الآية، وأثنى على الصابرين منهم والموفين بعهدهم.] (تفسير الطبري : ٧ / ٢٤٨).

ولهذا قال العلام ابن دقيق العيد رحمه الله : [ولما كان لقاء الموت من أشق الأشياء وأصعبها على النفوس من وجوه كثيرة وكانت الأمور المقدرة عند النفس ليست كالأمور المحققة لها: خشي أن لا تكون عند التحقيق كما ينبغي فكره تمني لقاء العدو لذلك ولما فيه - إن وقع - من احتمال المخالفة لما وعد الإنسان من نفسه] (إحكام الأحكام :١ / ٤٨٩).

وقال الإمام ابن الجوزي – رحمه الله – : [اعلم أن تمني لقاء العدو يتضمن أمرين: أحدهما: استدعاء البلاء، والثاني: ادعاء الصبر، وما يدري الإنسان كيف يكون صبره على البلاء، والمدعي متوكل على قوته، معرض بدعواه عن ملاحظة الأقدار وتصرفها، ومن كان كذلك وكل إلى دعواه، كما تمنى الذين فاتتهم غزوة بدر فلم يثبتوا يوم أحد، وكما أعجبتهم كثرتهم يوم حنين فهزموا، وقد نبه هذا الحديث على أنه لا ينبغي لأحد أن يتمنى البلاء بحال] (كشف المشكل : ١ / ٩٤٨).

وخلاصة القول في هذه المسألة : أنه لا تعارض بين حرص الإنسان على الشهادة، وتقحمه لمواطنها، وتأديته لواجب الجهاد، واجتهاده في القيام به، وحذره من تركه والتفريط فيه، وبين النهي عن تمنيه لقاء العدو، لأن تمني لقاء العدو يوحي بأن المرء متكلٌ على قوته، معتمدٌ على ما يظنه في نفسه من الثبات والصبر وقوة القلب وفي ذلك شيءٌ من الالتفات إلى الأسباب والتخلي عن مسبّب الأسباب جل جلاله، ومما يستأنس به ما جاء في بعض روايات الحديث : [لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإنكم لا تدرون ما تبتلون منهم]رواه الحاكم، والطبراني في الصغير عن جابر رضي الله عنه، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون ما يكون في ذلك]رواه أحمد، والبزار، والطبراني في الأوسط. وللعلماء في المسألة كلامٌ كثيرٌ ولعل هذا أوجهها والله تعالى أعلم.

وبعض العلماء حمل معنى الحديث على وقتٍ خاصٍ هو يوم الخندق، وقد يشهد لهم ما جاء في بعض روايات الحديث الضعيفة : [لا تسألوا لقاء العدو غدا، وسلوا الله العافية] رواه أبو يعلى الموصلي عن عبد الله بن أبي أوفى.

والله تعالى أعلم.

سؤال: كيف يكون التفريق بين الحقد والبغض للكفار على ما يفعلونه بالمسلمين وبين حب هدايتهم ودخولهم في دين الإسلام لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه :لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم، وهل الحقد والكره والبغض نفس المعنى أم بينها فرق.

الجواب: ليس هناك تعارض بين إبداء العداوة والبغضاء والبراءة من الكفار وبين حب هدايتهم، والحرص على ذلك، والرسل عليهم الصلاة والسلام ما أرسلوا إلا لهداية الناس وإرشادهم إلى طريق عبادة ربهم، وهم مع ذلك برآء من الكفار وكفرهم مجاهرون لهم بالعداوة كما قال الله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ الممتحنة: ٤، فإبراهيم عليه السلام –الذي أمرنا بالائتساء به – أعلن براءته وأظهر عداوته وبغضاءه لقومه ما داموا متلبسين

21-san.indd 10 05.09.2017 23:43:30

بكفرهم، وأعلمهم أن هذه العداوة لا يقطعها ولا يرفعها إلا إيمانهم بالله وحده، وذلك أن سبب هذه العداوة والبغضاء هو ما يتلبسون به من الكفر والشرك والمحادة لله ولشرائعه، والمسلمون يسعون لإزالة هذا السبب –وهو الكفر- بالدعوة والجهاد ونحو ذلك، فإذا زال السبب –وهو الكفر- زال المسبَّب -وهو العداوة والبغضاء-.

ففرق بين أن يحب المرء الخير للناس، وأعظم الخير هو الهداية إلى الصراط المستقيم، ويحرص على ذلك أشد الحرص، وبين أن يحبَّهم ويوالهم ويوادّهم مع كفرهم، فحب الخير لهم شيءٌ وحبهم شيءٌ آخر، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس حرصاً على هداية قومه ودخولهم في الإسلام حتى قال الله تعالى له : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾الشعراء: ٣، وقال عز من قائل : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ الكهف: ٦، وقال سبحانه وتعالى : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ فاطر: ٨

قال العلامة السعدي -رحمه الله- في تفسير الآية الأولى : [فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينذر به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهتدي بذلك عباد الله المتقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزنا شديدا، على عدم إيمانهم، حرصا منه على الخير، ونصحا لهم.

فلهذا قال تعالى عنه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ أي: مهلكها وشاق عليها، ﴿أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الهداية بيد الله، وقد أديت ما عليك من التبليغ] (تفسير السعدي : ٥٨٩).

وهذا موسى عليه الصلاة والسلام قد أرسله الله تعالى إلى أظلم أهل الأرض وأعظمهم مجاهرة بغليظ الكفر، وأصرحهم عداوة لله تعالى، وأشدهم تنكيلاً بالمستضعفين وتقتيلاً لهم، وهذه الأعمال لا شك أنها توجب أقصى درجات العداوة والبغضاء والبراءة والمقت، ومع ذلك قال الله تعالى لموسى وأخيه هارون عليهم الصلاة والسلام : ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ طه:٤٣–٤٤، وقال سبحانه أيضاً : ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ النازعات: ١٧ – ١٩،

ولهذا لما دعا موسى فرعونَ وأظهر له الآيات البينات، فاستكبر هو وقومه وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً، وأيس موسى عليه الصلاة والسلام من إسلامهم ورأى تماديهم في كفرهم وظلمهم والتنكيل بالمستضعفين دعا عليهم دعوته المعروفة كما قال عز وجل : ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ يونس: ٨٨، ومثل ذلك دعوة نوح عليه السلام على قومه لما دعاهم ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ نوح: ٢٦ – ٢٧.

وهكذا ينبغي أن يكون حال المسلم فمقصده وغايته هو هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور وإنقاذهم من الكفر إلى الإيمان بالدعوة والجهاد والتعليم وغير ذلك، وهو مع دعوته للكفرة يكون مبغضاً لهم متبرءاً منهم ومن كفرهم مجاهراً لهم بالعداوة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ لأنهم نَجسٌ ممقوتون عند الله تعالى وهم أعداؤه الذين كفروا به واتخذوا من دونه أندادا، فإن اهتدوا صاروا من أهل الإيمان وثبتت لهم أخوّته ولهم حق الولاء، وإن تمادوا وأصروا لم تنقطع عداوتهم ولم ترفع البراءة منهم، ولا يمنع هذا من معاملتهم بالتي هي أحسن، والعدل معهم، والحكمة في دعوتهم.

وليس معنى الحرص على هدايتهم ودعوتهم هو ما يفعله بعض الجهلة من تركهم للجهاد في سبيل الله وقتال الكفار بدعوى أن هدايتهم أولى من قتلهم، فصاحب هذا القول لجهله كأنه يستدرك على ربه الذي أمر بالدعوة والجهاد معاً وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم الذي أرسله للناس كافة وأمره بتبليغ ما أرسل به : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يوسف: ١٠٣، فليس معنى الحرص التخلي عن المأمور –وهو الجهاد هنا –

وأما هل هناك فرقٌ بين الحقد، والكره، والبغض. فمن حيث اللغة فلكل كلمة من هذه الكلمات معناها الخاص بها ، قال ابن منظور : [الحِقْدُ إمساك العداوة في القلب والتربص لِفُرْصَتِها] ويراجع الباقي في كتب المعاجم.

والذي جاء ذكره في القرآن فيما يتعلق بالكفار هو العداوة، والبغضاء، والبراءة، والله أعلم.

21-san.indd 11
05.09.2017 23:43:30